اللقـاء

راحت تعد ثيابها في حقيبة السفر الكبيرة متوهجة العينين مشبوبة الفـؤاد.. غـداً اللقاء.. ستعقد المفاجأة منه اللسان وترجف الشفاه وتتعانق الأيدي وقد ران الهوى على القلبين سبحة هيمى في معبد الوجود. عامين لم تره ولم تسمع منه.. عـامين قد حملت النفس على بعاده راضية مختارة.

وشغفها الحنين إليه فراحت يدها المثلجة تبرز من مكمنها فـي الخزانـة صـورة مغلّفة.. لكنها توقفت تهيء نفسها أمام المرآة، فحتى خياله يجب أن يراهـا أبـداً جمالاً ووحياً..

كصانع تماثيل ثم يحلها مرتبة قداسة، لا لنفسها بل لما تحمل من رمـوز الحـق والفداء، كانت حيال الصورة التي رسمها قلمها.

- " ستكون هدية رائعة ظللتها أشواقي وليالي سهدي والحرمـان الـذي قـضت الأقدار علي به"

هكذا همست لنفسها وهي تطبع على الوجه الحبيب من وراء زجاج بـارد قبلـة. وعاد إليها ذكرى ذلك اليوم الفاجع.. كم أراقت لها من دمـوع. أمـا الآن فإنهـا لتستعذبها وتستزيد منها، فغدا اللقاء ولن يحز بها بعده أمر. لشد ماعناها حينـذاك القرار ولشد ما فدح أعصابها.. ولكنها شجعت له فما ينبغي لها أن تتراجع. اتكأت على النافذة ترقب قدومه وصدرها يئن بهمومه.. لن ير الطريق المـشجر القـوام الفارع يخطر فوقه في اعتداد ثابت الخطوات، وله تقف وقفتها تنتظـره مرفرفـة الأشواق.

وأخذت تغالب دمعها بابتسامة.. لا يحسن بها أن تلتهف فتبدد ما حشدت من رباطة جأش للموقف العصيب.

وبدا فأسرع وجيب قلبها.. إنه لها وهي له فلم تعبث عبثها الأقدار؟.. لقد اسـتبدت شخصيته بروحها، لقد راعها فيه قوته الكامنة تتجلى في أعمالـه وأقوالـه، لقـد

هبطت إلى أعماق نفسه فرأتها حافلة بالروائع، استقلال فكر وجرأة ضمير وصدق كفاح.. وتآلفت عواطفهما على هدف يشدهما إلى وثاق حبهما العميق.

هو محام ناشئ يشق طريقه نحو النجاح، عصامي توهج في عائلة مغمورة.. وهي من عائلة مرموقة قاب لها الدهر ظهر المجن.. ولم يبق لها إلاّ عزة نفوس أفرادها ومشاعر أنفة موروثة لا تهزم.

وكم جلس يقص عليها ما قاسى من ضنك في صغره، كفاح مرير، وحياة فقر فيها كل ما يزعج تركت أثرها في نفسه وهو شاب فانبرى يناضل في سبيل حقوق تلك الفئة المظلومة المستغلة وتحسين حالها.

وكانت هي أرضاً خصبة لتلقي هذه البذور لما جبلن عليه من عطف فطري وحب للنفس الإنسانية وكره عنيف لمظاهر البؤس.. إن إحساسها المرهـف لا يرضـى للحياة أن تكون إلاّ كلوحة أبدعها فنان عبقري.. إن تعددت فيها الألوان فطابعهـا أبداً انسجام وجمال وحرية..

وراحت ترمقه وهو يبدو ويختفي بين الأشجار وما كاد يقترب حتى هرعت إليـه تقفز الدرجات الثلاث إلى باب الحديقة.

ما عرفت كتلك اللحظة لمشاعرها ثورة، لقد كانت من قبل تسري فـي حناياهـا، لطيفة كالنور كجدول رقراق وتناولت يديه الممتدتين تضغط عليهما بشدة وفي تلك اللحظة بدا لذوق غير مهذب أن يشوه اللقاء، في شخص ابنة الجيران، فتاة سمينة بليدة وهي تسأله عن صحة أخته وتعتب عليها عدم زيارتها لها منذ مدة وتثرثـر بكلام فارغ فامتعضت سعاد ولكنها ابتسمت ساخرة لا تكلف نفسها عناء الالتفات.

ولما دخلا غرفة الاستقبال كانت مسحة من الوجوم تظلل وجهها وسـألها مرحبـاً "هل ساءك أمر؟" فنظرت إليه دهشة:

-" ما أحسبك تظنني أحفل بهذه التوافه" وضحكت وهي تسترسل –"ربمـا كانـت آداب السلوك لا تسمح بمثل هذا التصرف، ولكنني لا أقسو في حكمي على أحد"

وأرادت تغيير مجرى الحديث، فأدارت بضع اسطوانات من الموسيقى الراقـصة وقدمها تتبع النغم بعصبية ماذا تقول له وكيف تبدأ؟

ثم ابتسمت وقرنت جدها بالهزل وهي تقول: -"ماجد! ما تفعـل لـو جئـت فـي الأسبوع القادم فما وجدتني.

-" هذا غير ممكن ولو فعلت لحطمت كيانك"

- يا لك من بطل! ولكن هل تحرمني حقاً من رحلة إلى إيطاليا برفقة خالتي، إنني بشوق لرؤية فينسيا.

- سنذهب إليها في شهر العسل.. فهل تريديني علـى الأنتظـار طـويلاً أيتهـا الشريرة؟.. لقد أعددت كل أمر ولم يبق إلا بعض قطع الأثـاث ولـن يـستغرق صنعها أكثر من شهر.

- ماجد لقد أعددت أنت نفسك ولكني لم أعد أنا نفسي بعد.

- أعجلي الخائطة بالملابس الضرورية، وليس لزاماً أن ينتهي كل شيء". فأجابت بابتسامة حزينة "لست هذا أعني يا ماجد.. إن الأمر لأدقّ.. لم أعد جسدي لحبنـا العظيم.. فاغفر لي هذه الاساءة التي جنيتها بحقك وبحق نفسي.. سأحملك كثيـراً وأفجع على رغمي مأملك.. وغصت بالكلمات وحار القلق في عيني الشاب وأمسك بذراعها:

- ماذا! ماذا تقولين؟

واستعادت الابتسامة التي جفّت على شفتيها، وفي عينيها دمعة كبرياء مقهورة".

- "نعم يجب أن نفترق يا ماجد.. هكذا أشار الطبيب! إنني لا أسـتحقك الآن بظروفي الحاضرة.. أمامي صراع في سبيل الحياة لست أدري كم يطـول ولا أريدك على انتظاري، بل أقسم عليك أن لا تقيد نفسك بكلمة أو وعـد تلزمك على وفاء.

"- سعاد لم هذا الإحراج؟"

- لا تنس أن الإخلاف ألد عداك.. وأنا أحب أن أطمئن على إنقاذك من نفسك العسيرة الحساب"

وراحت يداه تعبث بشعره كدأبه إذ يستغرق في تفكير عميق:

-" سعاد لقد وجدت حلاً.. نتزوج زواجاً صورياً وأعتني بك بنفسي"

ضحكت سعاد وهي تعابثه –" كنت تتهمني بأنني غير واقعية وأنت أولى بهـذا الاتهام مني اليوم.

-" سعاد لا ترفضي الحل"

-" بل أرفضه بغير تردد.. إنها تضحية أنت فيها مغبون وأنـا فيهـا شـقية.. سأموت غماً وأنا أرى حبنا العظيم يجفّ في مجاري الإشفاق الهزيلة.. كنـت أتمنى لو أهبك كثيراً، كل ما أملكه من مفارح الروح والجـسد فالحـب جنـة لكليهما، وليس ملجأ أعوذ به وأفرشه بأشواك تعاستي..

وامتلأت عيناها بالدموع ولكن الابتسامة لم تفارق شفتيها:

-" سأذهب بعيداً، وأقضي هذه الفترة مع خالتي أحمل في أعماقي خيالك، وأمل لقاك نشوة لحظاتي وثباتي في وجه الخطوب وحافزي للحياة..

-" بل تبقين هنا أيتها المجنونة الصغيرة.. دعيني أراك على الأقـل.. عـشرة أميال سرتها مشياً على الأقدام معرضاً للقتل يوم منع التجول، كي أراك لحظة ثم أعود ولا أتركك فريسة للقلق.. سريعاً ما تنسين!

-" لا لم أنس.. بل هذا ما أخشاه.. يجب أن تتعلم فراقي منذ اليوم فمن يـدري أنه لا يكون فراقاً طويلاً.. بل ولا تنتظر أن تسمع مني.. فليس لدي ما أقول.. ولا تشغل نفسك بي.. فأهدافك أجدى على الحياة من التفكير بي.. ولا تـدعني حجر عثرة في سبيل أمل اختلج في نفسك، فمنذ هذه اللحظة ليس لي عليك حقاً ولك علي حق الوفاء..

-" كفى هذا كثير"

-" وإنه لكثير علي ولكنني سأحتمله فجدير بك أن تحتمله أنت الآخر.

-" ولكن لم لا تبقين هنا؟"

-" إنني أكره مظاهر البؤس والانحلال في كل شيء حتى في نفسي.. وأكـره أن تراني بائسة.. يجب أن يبقى إنسان علـى الأقـل لا يتمثلنـي إلا رائعـة لناظريه..

وطفرت الدموع من عينيه.." ويحي من تعيس دعيني أقبلك أيتها الكافرة وأبكي قلبي المنفطر على كتفيك".

-" نعم قبلة واحدة فستهولها الذكرى وتزهر لنا جنة من قبل"

وفي ذلك اليوم استودعا الأماكن الحبيبة لكليهما وكان فراقاً هادئاً كأنما هو إلى لقاء قريب.. ما أن حوتها حجرتها حتى نزعت قناع التمثيل عن أشلاء قلبهـا وراحت تبكي ما شاء لها البكاء.

* * *

ومضى عامان لها في منزل خالتها، أرملة ثرية، مدرسة للتاريخ فـي إحـدى الكليات، وهاوية السفر والرحلات. ولقيت سعاد من حدبها ما استلّ لها الحيـاة من أشداق الموت.. ودخلت في تلك اللحظة وسعاد في نشوتها ترمق الـصورة الحبيبة.,

ورنّت ضحكتها مفعمة بالطيبة والحنان...

-" عاشقة أيتها الخبيثة وفنانة ولست أدري!"

وارتبكت سعاد "إنه ماجد يا خالة.. أليست هدية رائعة بعد غياب عامين..

وضحكت مرة أخرى:

-" كان خيراً أن تنسجي له جرزة صوفية أو تصنعي له قالب كعك، فالرجـل مادة أكثر منه روحاً ياعزيزتي.

-" كلا يا خالة إنك لا تعرفين ماجد نادر بين الرجال".

-" سأستشعر الوحشة لفراقك.. ولكن ماجد الأثير أيتها العاقة!... بلغي سلامي لوالدتك ودعيها ترسل لي بديلاً عنك ولاتنسي أن تتركي فراغاً فـي حقيبتـك لبعض هدايا سأرسلها معك.. سيكون برفقتك نخبـة ممتـازة مـن زميلاتـي المدرسات.. كنت أتمنى لو أرافقكن وأقضي عطلة الربيع عند أختي ولكننـي كما ترين مجهدة وأنوي الاستجمام خلال هذه الأيام القلائل".

-" ستكون مفاجأة رائعة يا خالتي.. لست أدري كيف وقعها على ماجد.. لقـد تغيرت وزاد وزني كثيراً.

-" وزدت فتنة يا حلوتي ونضارة".

-" ماذا تقترحين علي أن ألبس يا خالة للقاء.. أي ثيابي تبرز محاسني لعينيه؟

-" كلها"

وضحكت وهي تقول:

-" إذن ألبسها كلها.. ما رأيك بالثوب الوردي المحلى بشرائط زرقاء يا خالة؟ أن له لون الشفق الباهت حين افترقنا، وحين أذكره إذ تغوص الكرة الذهبية في أحضان الموج ناشرة أذيالها كعروس يابانية. وكما أود أن أعود إليـه، علـى أجنحة الشفق والسحر والخيال وضاق صدرها بالأشواق.. إن الفـرح موجـع كالحزن سواء.. وقضت ليلة مسهدة، لا كتلك التـي قـضتها قبـل دورتـين شمسيتين..

وفي اليوم التالي كانت السيارة قد طوت المسافات إلى الوطن العزيز، مـراح الهوى فيبدو لعينيها المغرمتين موشحاً بهالات نور..

وتركت حقيبتها في الفندق.. إن شعرها شعث مسترسل لما عبث بـه الهـواء فلتمر بالمزين وليعد لها تسريحة يفضلها ماجد.. وراحت تحلم وقلبهـا يقفـز متوثباً بين جوانحها مقلبة صفحات المجلات أمامها لعلها تخفـف مـن تـوتر انفعالها، مستعجلة مرور الزمن الثقيل ريثما تنتهي عملية التجفيف إذ تقع على خبر، بضعة كلمات تعلن خطوبة ماجد إلى ابنة التاجر المحدث الثراء..

وأرعدت المفاجأة قلبها فتصدع وأصابت منه المحز، وهـوت أمـاني اللقـاء تحتضر بسمة مريرة على شفتيها!.

* * *